يوسف العفيف وامرأة فوطيفار

نشيد

للشاعر رومانوس المرتم

نقله عن اليونانية وعلق عليه

الاب بنوولاوس قادري ق

توطئة

نشيد طريف ومأساة طقسية رائعة للشاعر اللبناني باللغة اليونانية، رومانوس المرتم، الذي نعتوه بيندار الكنيسة وكنارة الروح وقيثارته الشجية الاوتار.

وُضع هذا النشيد ليوم الاثنين من اسبوع الآلام، وبه تحتفل الكنيسة البيزنطية بعيد يوسف العفيف وانتصاره على المرأة الماهرة.

طرق رومانوس هذا الموضوع التأريخي واستقى صفوته من سفر التكوين[1]. وقد نزع عنه حلته القصصية والبسه ثوباً من الشعر التمثيلي فأبرزه في قالب فني لا يقل روعة وجمالاً عن قصائد اكبر شعراء الانسانية[2].

سكب الشاعر في قصيدته هذه نبرات من الجمال الساحر ورسم فيها صوراً من الخيال الجري. الزاهر الذي تفرد به عن سائر الشعراء الدينيين في كل العصور. وقد مزق رومانوس بخياله الفني ضباب الوهم، وتطلع الى ما وراء الخيال اي الى الحقيقة الخالدة. ونظر الى تلك العين الازلية التي ترقب الكائنات بنظرتها الحادة المتغلغلة في اعماق الكون والضمير والساهرة ابدا على الخلائق.

---

١) سفر التكوين ٣٩ : ٦-٢١

٢) cf. Edmond Bowy, *Poètes et Mélodes*, p. 367

وكأني بالشاعر الافرنسي ڤيكتور هوغو يتلاقى مع رومانوس وروحه الرسامة وخياله المبدع على صعيد واحد : ذاك في قصيدة « الضرير » وهذا في نشيد « يوسف العفيف » ، على بعد اثني عشر قرناً .

ان روح الشاعر الماهم فوق الزمن والمكان فهي من تراث الازل المتجدد ابداً وهي نصيب لجميع الاجيال التي تعشق الجمال والاتزان والمساواة . فالجمال الشعري لا يختص بامة دون أخرى فهو جامع شامل لا يتعرف الى الانانية العمياء .

وان كان شعر رومانوس من تراث العصور البيزنطية المجيدة، فهو من التراث الشامل ولكن يحق للبنان ان يفاخر به القسطنطينية لان رومانوس تنشأ على تمتمات الطبيعة الحالمة الراقصة في لبنان، واخذ الموسيقى عن رقصة الامواج على شواطئ بيروت ، واستلهم الشعر من نفحات النسيم والارز في لبنان ، وتغذى بالخيال الواسع الازهر من افق لبنان الخلاب .

ولقد صوّر المرنم الكنسي في هذا النشيد كيف ينحط المرء الى دركات الذل والهوان ، ويسمو العفاف الى ذروة العظمة والبطولة . فمثل لنا الرذيلة باقبح الوانها ، والفضيلة بابهى مظاهرها . يتسلط الفجور على امرأة فوطيفار فيملك شعائرها ويتولى على جوارحها ، فيلهبها بلظى الشهوة الجامحة ونار الهوى الاثيم . وتتملق العفيف تارة بالتوسلات العذبة وبالوعود البراقة ، وطوراً بالوعيد والقصى التهديد لتستميله الى تحقيق رغبتها ، وهو ثابت الجنان امامها كالطود الراسخ لا يلين له عود ولا تثبط عزمه العواصف والرعود ، ولا تخلب لبه الاماني والوعود، فيفلت من يدها مستعيناً بنعمة ربه . وهذا ما عناه شاعر دير الصابغ نيقولاوس الصائغ اذ قال :

« ذرها . تشق قميصاً انت لابسه واهرب كيوسف يوماً فاز بالهرب » (١

ما اروع المشهد الذي يظهر الشاعر فيه الشيطان مقبلاً ليغري المرأة ويحرضها على خداع الفتى وقنصه، فيشير عليها ان تجمل محياها وتتضمخ بالاطياب،

---

١) ديوان الخوري نيقولاوس الصائغ ، بيروت ١٨٧٦ ، ص ٣٣

وتنور جيدها بالقلائد الذهبية ، وان تكون صنارةً كما كانت حوا. في الماضي القديم .

وما اشدّ روعة المشهد الذي يمثل لنا فيه وقوف حكمين بين المتحاربين العفاف والهر ، ومناصرة الملائكة ليوسف في اشتداد محنته ، وتأييد الابالسة لمرأة السوء في استغواء يوسف حتى اسفر الجهاد عن نصر العفاف وقهر البغاء . ذلك لان العفيف يضع نصب عينيه تلك العين الساهرة التي ترقب الخلائق طرًّا، فيستمد منها قوة في الوهن، ومددًا في المحنة، وتجلدًا في الجهاد، فيولي هارباً من مكيدتها ويفلت من شراكها وهو على يقين بان امرأة السوء وهدة العطب وسم في كأس من الذهب وهي ايضاً :

« جميلة الوجه لكن لا جميل لها تأبى الجميل ولا تولي سوى الكربِ »

وان العفاف زهرة تفتحت في السماء ففاح عبيرها في الارض فاعتنقتها الاجيال . فسبحان من يمدّ محبيها بالتأييد ويوليهم النعمة والغلبة وحسن المآل.

نشيد

يوسف العفيف وامراة فوطيفار[1]

مقدمة[2] ٨

١

ايها المخلص ،
أهل الذين تبعوا
آلامك وقيامتك
ان يسجدوا
للعين الساهرة .

مقدمة

٢

٥ تعالوا يا معشر الاخوة ، نضارع جهود
الذين قطعوا يوسف العفيف
بجهاد رائع المقدسة ،
مرحلة الصيام ، ونحن بخوف
وتاقوا بلهفة من عقم التينة.
الى بدء آلام الرب لنهدم بالرحمة

---

١) Pitra, *Analecta Sacra* , *Parisii* 1871, pp. 67-77

٢) لهذا النشيد مقدمتان .

٣) تشير الارقام، على الهامش ، الى ترتيب الابيات اليونانية.

لذة الاهواء ،
حتى اذا ما بلغنا بشوق
عيد القيامة ،
نحرز من الملاء
الغفران فالاطياب
لان العين الساهرة

ترقب الجميع .

٣

نحن الذين انضوينا
تحت لواء ملك
يهب جنوده
ملكَ السماوات ،
لنتسربل الفضيلة
عُدّةَ النفوس الراسخة
لنحارب بها
الخطيئة العدوة .
كيف نفهم الفضيلة ؟
هي الحكمة ،
هي فن الفنون ،
وعلم العلوم .

بها تُقاد النفسُ
كما بسلّم ،
ويُصعد بها
الى علوّ الحياة السماوية .
فتعلم الناس
الفطنة والشجاعة ،
والعفة والعدل[1] .
لنتدرع بمثل هذه الأسلحة
ونستمد نعمة المسيح ،
فانه يولي محبيه
اكليل الظفر على الاعداء ،
لان العين الساهرة

ترقب الجميع .

٤

اذا رأيتم موافقاً
فلنرد على الملا

سيرة يوسف
لنفهم المجد السني

١) سفر الحكمة ٨ : ٧

الذي اتصف به
هذا الحكيم ،
وهو قدوة حية
للجميع .
فلنبادر الى احراز
حياة عفيفة بالقناعة .
ان نار الحسد
استفزت اخوة يوسف
فباعوه عبداً[1] .
وما استعبدته
الا هواء يوماً
فقد احرز الحكيم
نفساً حرّة ،
وتسلّط على الشهوات الجسدية
ولم تضعضع ثباته

تملّقاتُ المرأة ،
بل أفلتَ
من ملاطفاتها .
لفظت المرأة
كلمتها كالماصفة ،
وفيها سكبتِ المسكرَ
كالسيل ،
لتهدم بيت العفاف ،
ووعدته بثمرات
الخير والإسعاد
واما يوسف النبيل
فكان بعفافه
كالطود الراسخ ،
لان العين الساهرة
ترقب الجميع .

٥

كان هذا العفيف
بالجسد مستعبداً ،
وبالروح حرًّا ؛
ظهر في الحُلم ملكاً ،

وباليقظة عبداً يباع .
ومن كان يُظن عبداً
قد استعبد المستعبِد .
اكرمه السيد ،

١) سفر التكوين ٣٧ : ٢٧

وتعشقته السيدة، واستغواها
عاطفة السيد نبيلة ، جمال وجهه.
ونيّتها اثيمة. سلّطه ذلك على بيته ،
أحبّ الرجلُ يوسفَ وبذلت هذه
لعفافه جسدها للفجور.
وهامت المرأة بالعفيف نظر اليها يوسف
لمهرها. بازدراء.
ابهج السيدَ وتمثل هول الدينونة ،
صلاح سيرته ، والعين الساهرة
ترقب الجميع.

٦

امّال الهوى الاثيمُ واعتد يوسفُ
مجرى الامور امور الدنيا كالمنام ،
الى نقيضها : وجذبتِ المرأةُ
فتسلط العبد اليها العفيفَ
على الاهواء والملذات بُغيةَ استغوائه ،
كسيد مطلق ، فخاب ظنُّها.
وامست السيدة رَمَت نفسها
للخطيئة عبدة ، بنصال من نار.
فمن اقترف الخطيئة وكما كان محيًّا يوسف
كان لها اسيرًا ، يشعّ جمالًا ،

كان قلب هذه
يحلولق كالليل التام .
وكما استاذت هي
نيران الهوى
أطفأ هو بعفته
نارًا لا تطفأ ،
لان العين الساهرة
ترقب الجميع .

٧

حين تسلّط
اظلم رشدها ،
جنونُ اللذة
ولم يخف عشقها
على قلب المصرية
ولا مرارتها
جرحه جرحاً خفيًّا ،
من حضور يوسف ؟
لقد رضيت
وكانت تتحرّق
جروحاً ثخينة ،
من غيابه اشد التحرّق .
ولحقها ظنّت الغيبة
ولما انتصب امامها
آثار الجروح لذة .
تملقته بالكلام العذب ،
تناولت بناظرها
مجتهدةً ان تنزع
من كنانة العفيف
منه الشجاعة .
سهاماً جرحت قلبها ،
اما العفيف فكان
حين ظنت الشقية
يسعى الى صدّها .
ان الجرح لذة .
عن قصدها الأثيم ،
فالهيام الذي لا يُغلب
لان العين الساهرة

ترقب الجميع .

٨

ها قد أقبل الشيطان ،
متقنّعاً بقناع الزنى ،
ليؤازر المصرية
فقال لها :
تشجعي ، يا امرأة ،
كوني صنارة منوية ،
كصنارة الماضي القديم .
اعدّي الطعم ،
وأقنعي الفتى ،
وجمّلي محيّاك ،
وتضمّخي بالعطور
بكل حذق ؛
ونوّري جيدّاك
بالاطواق الذهبية ،

وألبسي كلّ ثوب
غالي الثمن .
تضمّخي بالاطياب الفوّاحة
فتسترخي قوى الشباب ،
لانهم سوف يخوضون
معارك حامية الوطيس .
يزفّ هو اليك العفاف ،
فزفي انت اليه الفجور !
حذار ان تُغلبي
فتسخر منك !
انه سيقول لك :
لن افعل ما تريدين ،
لان العين الساهرة
ترقب الجميع .

٩

رأى العفيف امامه
منظراً غير عفيف ،
فابتعد نافراً منه .
رأى وجهاً بهياً
فادرك مرامها الخداع ،
فأفلت مسرعاً ،

هارباً منها ؛
كأنها الافعوان المتخفّي .
واذ عزّ على الشقيّة
امتهان الشريف لها ،
نضت نقابَ الحيا عنها
وقد برزت له بوجه

من الفحشاء منتقب .
الا انها استدعت اليها
امرأة لعوباً لتلاطفه ،
ثم عرضت نفسها ،
باساليب الخداع .
وكان لسانها مرهفاً
احدّ من السيف مضاءً ،
فتمسكت بقميصهِ
بُغية الاثم ،

وخاتلته بفنونها الخدّاعة ،
فما استطاعت التغلّب
على رشده ؛
وكان يردّد القول:
ان افعل الأثم الفظيع ،
واني ابغض
المعاصي على الدوام؛
لان العين الساهرة
ترقب الجميع .

١٠

يا لمنتهى الجنون !
جنون المرأة
الذي لا يُغلب ،
اذ تلهّبت بالنار
هُياماً بيوسف !
رأته غير مكترث
لتملقاتها ،
وغير خاضعٍ
لاهواء الشباب ،
فصرخت به :
انت عبدي المُشترى ،

اجل باعوك لي
لكي تتعبّد لي ؛
وانا اقتك سيّداً
على كل بيتي ،
فكن انت سيّداً
عليّ ، انا السيّدة .
انا لا احسبني ذليلة
اذا تذللت لك ،
اذ لا فرق
بين السيادة والاستعباد ،
ونعرف نحن ان آدم

ابو الاباء جميعاً ؛
وان حوّاء
امّ الامهات.
فنحن كلنا متشابهون
لاشتراكنا في طبيعة واحدة.

لا تخشَ اتيان الاثم ،
ولا تُذعن لقول
من يقول :
ان العين الساهرة
ترقب الجميع .

١١

لما وقفتُ
على اخلاقك المتزنة
آثرتُك على
رفاقك العبيد ،
لانك احرزتَ
الوقارَ في عينيك
وفي شفتيك
ـ كما احبَّ ـ
وحزتَ كل شعور سامٍ
ـ كما اريد ـ
هلمَّ استمع نداني
فابدي لك مرامي :
اني أُثر
عليك الخيرات ،
ان صدقتني ،

وسأكافئك
بالمواهب الوفيرة ،
منهضةً اياك
الى مستوى حياتي ،
فتصبح حرًّا
وأوافيك بلهفة ،
ولن تظلَّ عبدا ،
اذا اقبلت اليَّ بعطف .
وان لم تصدقني
تعرضت بمدل
للنوائب والفواجع ،
وانا اقيدك ،
يا عزيزي ،
بالسلاسل.
وادفع بك الى خلسي.

فلا تسعَ اذن فيما تعتقد
الى حتفك بظلفك . ان العين الساهرة
وانت على غير حقّ ٣٠٥ ترقب الجميع .

١٢

٣٠٦ أنهت المرأة وعيدها، ايها المتمرّد ؟
وما استطاعت قد حان الوقت
ان تدكّ البرج المنيع لأتمتع بلذة شهوتي ،
بتمليقاتها . فليس هنا احد
٣١٠ فظلّ هداه نيّرًا من رجالي .
حافظاً مجد العفاف بهيًا . ٣١٥ ولا يصدّني شيء
ابصر تلك الغبيّة عن اتمام رغبتي .
تترصده هنا وهناك ، رشقته بسهام نارية ،
وتبعد عن المنزل فا احرقته .
٣١٥ جميع الخدم . وقد تخلص منها ،
ولما انفردت به ، ٣٢٠ ووجهه يشعّ بالعفاف ،
كلمته على حِدة ويطفئ لهيب شوقها
وقالت : بقوله :
٣٢٠ حتّام أحتملك ان العين الساهرة
٣٢٥ ترقب الجميع .

١٣

٣٢٦ قالت المرأة لخداع الفتى .
الحمقاء هذا واذ ذاك اقتحم

المجاهدُ الصنديد وراودته عن نفسه.
ميدانَ التجارب ، فانتصر الشريف
ليقاوم العدوَّ المحتال. على عدوّته المحتالة.
فوقف حَكَمان وكانت الملائكة
بين المتحاربَين: تناصر العفيف،
العفاف يؤيّد يوسف ، والشياطين
والفجور يستفزّ المرأة. تناصر المرأة.
فانتصب العفيف المجاهد والرب ناظر من العلاء
ازاء الفاجرة ، ليتوّج الظافر
والعاهرة تحدّق اليه باكليل النصر ،
وتداعبه ، لانّ العين الساهرة

ترقب الجميع.

١٤

واستأنف يوسف والقلم ان يفدأ
كلام الطهر ، الاخلاق النبيلة ،
وهتف بالمرأة العاهر: وكما ان الضباب
انا عبدك المبيع ، اذا حجب الفضاء
اقاسي هذا الظلم حسدًا ، لا ينقص
ولو كنت مبيعاً بالجسد، من بهاء الشمس ؛
فانا حرّ بروحي. وكما ان السحاب يتبدّد
انه ليعسر على اللسان حين تسوقه الرياح ،

وبعد ذلك تمضي
الشمس ببهاء ؛
هكذا ستزول
عبوديتي هذه ،
وتشرق حريتي ،
فاسود على اصقاع
مصر كلها ،
لاني أنفتُ الاستعباد
للاهواء المخجلة .
هذا ما تنبأ به عني
من قبلُ
من وحده يعرف الخفايا .
ان الدين الساهرة
ترقب الجميع .

١٥

سمعت المرأة الفتى
يخاطبها بتلك اللهجة ،
فعمدت الى تمليقه
فقالت :
انت ما تخلقتَ
باخلاق العبيد يوماً ؛
وقد عرفت ذلك
من مزاياك .
فانا على يقين
من هذا ؛
واشهد لك
بانك تقوم
بمهمة الاشراف .
ووُجدتَ بغير عيب
في تصرفاتك كلها ،
ولم تسئ الى
رفاقك في العبودية ،
فانت اذن
من ابناء النبل
والشهامة .
وستأتي اليّ
فانثر عليك
خيراتي الكثيرة .
وبأمري تخضع لك
بلاد مصر .
فاقبلني انا سيدتك ،

اسيرة هواك . ولا تعذّبني ،
اقبلني ، بقولك من جديد :
لنتمتع بفرح متبادل . ان المين الساهرة

ترقب الجميع .

١٦

استمعَ يوسف فلا ألينُ
الى خطاب الفاجرة لشهوات الجسد ووثباته،
فقال : بل اضبطها بالعفاف ،
لَحقٌّ ما تقولين . وحتى الساعة
اني فرع دوحة صالحة ؛ لا ازال طاهرًا
لكني اراك من اثم كهذا ،
فاقدة الحجى ، فلا ادنّس جسدي
ولذا اهرب بالعهر ،
من الحياة معك . ثمن الآثام الثقيلة
واذا ما فقد المرء ان يتعدّى الانسان
عقله ، على زوجة ذات بعل ،
قضى حياته واكثر فظاعةً عندي
خاضعا للاهواء ، ان ادنس مضجع سيدي،
كالبهائم . لان المين الساهرة

ترقب الجميع .

١٧

اجابت المرأة
المفيفَ :
اسمع ، يا فتى ،
تكروجي - كما تعلم -
خاضع لارادتي ،
وطوع يدي كلَّ حين ،
وانا قادرة
على الاساءة اليك ،
اذا قدمتك اليه
من جديد ..
ان له فيك آمالاً حسنة
لمعرفته السابقة بك.
وهو ايضاً يحبني
كما يحترمك ،
اذ اني متعقلة .

فحتى الان
لست ملومة ،
وقربني ، كما قلتَ ،
يشق بي .
فلا عين هنا ترقبنا ؟
فلمَ تنفر مني ،
ولا تجيب الى مطلبي ؟
اما تأخذ بعين الاعتبار
رغبتي ؟
فها هي الجدران
تسترنا من كل جهة ،
وتظللنا القباب من فوق ،
فلا تخف
اذا فكرت
ان العين الساهرة

ترقب الجميع .

١٨

اجتهد العفيف
ان يردع تلك الشقية ،
فأردف يقول :
لا تشيري علي بالاثم ،

كما اشارت حواء
به على آدم !
اغربي عني !
فلن آكلَ من شجرة

فيها الموت الزؤام !
ففردومي العفاف
ينبت الطيبات.
وايّ شيء
اطيب من العفاف ؟
فالذين يحافظون عليه
يتلألأون مشرقين
كالملائكة .
ولو كان سكان
هذا البيت
لا يرون عملنا وهم بشر ،
فالبشر لا يدركون الخفايا.

الّا ان ضميري
يحكم عليّ :
لا تعتقدي اني
اقترف اثماً كهذا .
واذا لم يكن من رقيب
ليوبّخ الزاني ،
فديّاني لا يحتاج
الى برهان ثابت .
فاني ارهبه على الدوام ،
واهرب من ملذات
الحياة الاثيمة ،
لان العين الساهرة
ترقب الجميع.

١٩

واذا جاريتكِ
على فكرتكِ
بان السجوف تظلّنا ؛
نحن الخطأة ،
ولا عين هناك
ترقب ما تريدين
ان تصنعي من الاثم ،
فاخبريني ، يا وقاح!

اين نهرب
ممن يسبر الخفايا؟
واذا كان رجلك غائباً ،
فديّاني ليس بغائب !
وان لم يرني
صاحب السرير ،
فعالم الخفايا يراني .
فكيف نفلت ممن

يسبر القلوب والكلى ؟ لا تخفى الزناة
فالسماء تغضب علينا ، عن عالم السر والعلن .
وعبثاً نستسلم فكلّ شيء
الى الجدران ، عارٍ ومكشوف لديه.
فهي لا تقينا من الدينونة. انا لا آتي الشر امام الرب ،
فالقباب السماوية لان العين الساهرة

ترقب الجميع .

٢٠

اشتعلت المرأة وقالت النعمة من الملاء:
الحمقاء غضباً اسهر معي !
من هذا الكلام ، لقد قهر ابليس
ووثبت الى العفيف، والمرأة معا ،
وتمسكت بردائه ، وطوقت النعمة
وجذبته اليها بشدة جيدَ يوسف
وهي قائلة : ببهاء العفاف
استمع لي ، يا حبيبي ، المجدد الاشراق ،
وهلمّ الى سريري ! وقدم الطهر ليوسف
لقد ساء فأل المصرية ، ممتلكات المرأة ،
وناصرت النعمة العفيف، وقال له :
هتفت المصرية من جديد: لقد شقّت قميصك ،
هلمّ الى سريري !

ولكنها لم تدنس عرضك، وثوبَ عدم الفساد
ولا جسدك العفيف ! من يد واضع الجهاد،
لقد نال المجاهدُ لأن العين الساهرة
اكليلَ الظفر، ترقب الجميع .